النقد الأدبى
فى فرنسا

رأينا أن نجمل القـول إجمالا فى تاريخ النقد الأدبى فى فـرنسا، لنقف على سـير حـركة النقـد وأطواره وأثره فى الأدب الفـرنسى، وعلى المذاهب المختلفة فى ذلك، ثم نذكر بعد هذا حـركة النقد عند العرب ومذاهب الأدباء لديهم.

يقولون أن أرسطو أول من كتب فى النقـد الأدبى فى نحو القرن الرابع قبل التـاريخ المسيـحى. وكتـابه "فنون الشعـر" عبارة عن كـتاب فى البـيان وقواعد البلاغة، بنى عليـه طريقته فى النقد. وهو أول من قال "أنه يجب أن تكون أعمال الإنسان جارية على قوانين الطبيعة ونظاماتها". وبدأ بالبحث عن عيـوب الكتابات التى يثـقل على النفس تذوقـها. ووضع كل ثقتـه فى علوم البلاغة، ليـصل بها إلى كشف خبـأ الكلام البليغ. ولكنه لم يصل إلى قانون يبين الأنواع الأدبيـة، ولا إلى دراسة الأطوار التى تعترى البـلاغة أثناء تقلب التاريخ عليـها. غير أنه أرشـد إلى الوسائل العامـة التى يصح أن تكون طرقًا ومناهج للكتاب. وظهرت بعد أرسطو كتب كثيرة فى النقد لا تكاد تخرج عن هذا المعنى، أكثرها من قبيل النقد الـلغوى. وكتب النقد عند الرومان فى نحو القرن الثـانى قبل الميلاد كانت مملوءة بالمـباحث اللفظية. إذ كان الغـرض منها تقـويم ألسنة الخطبـاء، وإصلاح حـالة الخطابة فى مـوقف النزال. ولم يكن اهتمامهم بشىء مـن أنواع الكلام إلا من أجل ذلك. فكان النقد عند الرومان لا يكاد يخرج عن صنـاعة الخطابة. فلم يكن لديهم مـذهب أدبى ولا طريقة

واضـحة فى النقـد. ولذلك انحصـر النقد عـندهم فى النقد اللغـوى وعلوم البلاغة، وفى القـواعد النحوية والصرفيـة. أى فى البحث عن اللفظ وأصله وصحتـه. ثم فى البحث عن مطابقته للمعنى المقـصود، وفى طرق تأثيره فى نفوس السـامعين. واستـمر الحال على ذلك إلى القـرون الوسطى. ومر على النقـد نحو سـتة قـرون فى تلك الأزمان، وهو لم يخط خطـوة واحدة. لأن العـقول فى القـرون الوسطى كـانت مقـيـدة بأهواء الملوك والأمراء ورؤسـاء الأديان. ومتى كانت الأفكار خـاضعة لغيرها فإنهـا لا تعرف الحرية ولا ترى طرق الإصلاح. ولذلك لم يكن الشـعراء إلا آلة لأهواء هؤلاء الرؤساء. فلم يكن لأحدهم أن يقول شـيئًا إلا لإرضاء أمير أو رئـيس. فكيف يجد النقد له منفـذًا أو طريقًـا؟ إذ لا يمكن أن يكون الإنسـان ناقـدًا إلا إذا كان حـرًا فى الفكر. لأن حركة العقول تابعة دائمًا للحركة العامة للحالة الاجتماعية.

أما فى عـصر النهضـة فقد تحـررت العقول، وظهـرت "شخصـيات" الكتاب والشعراء، ولذلك تغيرت أيضًا طرق النقد. ولكن النقد أيضًا فى هذه الأيام لم يخرج عن النقـد البيانى مع بعض التـوسع عما كـان عليه فى الأيام الماضـيـــة. وكـان من رجـــاله دانت "Dante" (١٢٦٥ - ١٣٢١) وبتـرارك "Petrarque" (١٣٠٤ - ١٣٧٤) الشاعران الإيطاليان الشهيران. واشتهر بالنقد اللغوى وهما أول من فك القيود القديمة عن النقد الأدبى. وكان النقد عندهم يقرب جداً من النقد عند العرب فى كتب البلاغة، وآراء الأدباء، بناء على ما كانوا يشعرون به من قراءة الشعر والنثر. ولعلهم أخذوه من العرب، كما أخذ الفـرنسيـون منهم كـثيـرًا من أوزان الشـعر وطرقـه، أو أن هذه من الأطوار الأولى، التى لم يتخطاها النقد الأدبى عند العرب.

وأول حركة للنقد الصحيح فى فرنسا ظهرت فى عصر النهضة، عندما اختلط الفرنسيون بالإيطاليين أثناء الحروب الكثيرة، وقلدوهم فى شعرهم، وعرفوا منهم أساليب الآداب القديمة، وطرق بلاغتها، وانتشر عندهم تعليم اللغة اللاتينية، واطلعوا على كتبها وترجموا منها. فاتجهت عقولهم إلى الموازنة بين أدبهم الساذج والآداب القديمة. فكان الإيطاليون أول من كشف أسرار الآداب القديمة ومخبآتها، وأدرك مطابقتها للطبيعة الإنسانية وموافقتها للتعقل. وهم أيضًا أول من وجه الأنظار إلى ربط الصلة بين الآداب والفنون الجميلة.

وفى أوائل القرن السادس عشر تألف مذهب نقدى جديد كان على رأسه الشاعر الشهير رونسار "Ronsard" (١٥٢٤ - ١٥٨٥) أحد كبراء الأشراف. واجتمع حوله جماعة الأدباء من علية القوم ونبلائهم، وزجوا بالأدب فى طريق "أرستقراطى". فلم يلاحظوا ذوق الشعب ولا حالته العقلية، بل لاحظوا أذواق الأشراف والكبار، من عواطف وإحساسات وأفكار وغيرها.

وكان أساس هذا المذهب تقليد البلاغة القديمة، وما بها من البراعة وجمال الصناعة والإتقان. وارتقت فى هذا الزمن منزلة الشعر والشعراء، وعظم تبجيل الناس لهم، لأن الشعر كان جمال القول وموضع مظاهر الذكاء. وكان الشاعر أقوى وأبرع إنسان، كما كانت الحال عند العرب فى بعض الأزمان. وانفتح أمام الأدباء باب الموازنة بين الشعر القديم وبلاغة القرون الوسطى فى فرنسا، وأعجب الناس أيما إعجاب بالبلاغة القديمة، وأخذوا فى تقليدها. ولم يعد الإنسان يحكم على الشعر والشعراء إلا بواسطة

الموازنة بين القديم والجديد، وبنى النقد على مجاراة تلك البلاغة، لأنهم رأوا أن بلاغة القدماء متينة من جهة الصناعة، ومن جهة الموضوعات، ومن جهة ما فيها من تصوير النفوس الإنسانية ورسم الحياة، لأنها تصور الحقائق كما هى، ولأنها مبنية على الفكر والتعقل.

لهذا اشتدت رغبة الفرنسويين فى تقليدها، وأسسوا لذلك القواعد، وبنوا طريقة النقد عليها. فكانت هى نموذج البلاغة، ونموذج الأفكار. وربما فاق هذا التقليد والإعجاب تقليد المسلمين وإعجابهم بالشعر الجاهلى. ولا يزال أهل أوروبا فى تعصبهم لليونان والرومان إلى اليوم. ولكنهم يقلدونهم فى لب الموضوعات، وفى أن البلاغة يجب أن تمثل حياة الأمم ونفوس الأشخاص، لا أنهم يجارونهم فى الألفاظ والعبارات لا غير. وكان مذهب رونسار مبنيًا - كما قلنا - على ذوق "أرستقراطى" بحيث تكون البلاغة من شعر ونثر شريفة العبارة، لا تحتوى على ألفاظ مقذعة، ولا على شىء من المجون. وأن يتحاشى الكتاب والشعراء كل ما يخرج عن حد الأدب، أو ما يدعو إلى سوء الأخلاق وظهر أثر هذا المذهب فى كل أنواع البلاغة الفرنسية، خصوصًا فى التمثيل. ثم شيد الفرنسيون على أنقاض هذه الآداب والبلاغة القديمة آدابهم وبلاغتهم، لإعجابهم بها إعجابًا شديدًا. ولكنها لم تخمد منهم قوة الابتكار، ولا حب الانتقال من حال إلى حال. لأنها بلاغة اجتماعية متينة ممتعة. بل هذبت من أفكارهم، ورقت منهم ملكة الصناعة الأدبية، وعلمتهم دقيق الملاحظة، وهذبت من استعدادهم الفطرى. وتخرج فيها أشهر الكتاب والشعراء، ولا تزال أشهر وأمتع البلاغات، لأنها بلاغة نفسية اجتماعية، بليغة فى معناها أكثر منها فى ألفاظها وأساليبها. ولا يزال

أشهـر الكتـاب الآن يستـمدون أفكارهم وتربيـة عقـولهم من هذه البـلاغات القديمة المتينة.

ذلك أثر اطلاع الفـرنسيـين على الأدب القديم، وأثر احـتكاك العـقول والأفكار كما يقولون، وأثر مـذهب رونسار فى النقد. وهكذا يجب أن تكون قوة النقـد. كل هذه الحركة جاءت من الخـارج بواسطة الاطلاع على بلاغات الأمم الأخـرى، والميل إلى تقليـد اليـونان والرومان. والمتـأمل فى بلاغـات الأمم، يرى أن كل حركـة من الحركات الأدبيـة الكبرى، ذات الأثر العظيم، هبت ريحهـا من الخارج بسبب تقـابل الأفكار وتفاهمهـا . . . ولم يظهر أثر النقد فى أمة من الأمم ظهوره فى بلاغة الأمة الفرنسية. ويمكن أن يعد تاريخ النقد الأدبـى عند الفرنسـيين من أهم ما يـكون فى أنواعه. لذلك اخـترنا أن ندرسه فى محاضراتنا، ونذكر ما به من المذاهب التى نهضت ببلاغة الفرنسيين فجعلتها أجمل وأمتع من غيرها.

نذكر من بين الـنقاد الكبار، بل من أوائل النقـاد، الشاعـر الناقد بوالو "Boileau" الذى عاش من سنة ١٦٣٦ إلى سنة ١٧١١. ويعتبر عند الفرنسيين أول من كتب فى النقـد، كما أن القرن الـسابع عشر هو أول القـرون فى نقد الفنون والأدب. وقد بسط بوالو مـذهبه فى كتابه "الفنون الشـعرية". وظهر هو وكتاب "الهجاء" "Satiro" الذى ذم فيه مذاهب البـلاغة اللفظية من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٧٠٥ وأيد بوالو فى كتبه مـذهب تقليد القدماء. قال: "إذا قلنا بتقليد البلاغة القديمة، فليس حبًا فى تقليد بندار أو هوميروس الشاعرين اليونانيين، بل لموافقـتها للطبيعة والعقل، لأنها تقليـد لطبيعة الإنسان ووصف الحياة وصفًا بعيدًا عن المبالغة". وقال: "إن الآراء المبنية على التعقل هى التى

توجـد الصلة بين أفراد الإنســان" . يريد بذلك أن البـلاغات من نظم ونثـر، عبارة عن حقـائق ثابتة. ولا يريد بالحقائق الحقائق التـاريخية. أى أنه لا يلزم من كتابة شىء حصوله. بل يريد الحقائـق الإنسانية كما يقولون. وهى ما يقع مثلها بين الناس، كما فى بلاغة اليونان مـثلا. فإنها تكاد تكون كلها حرافية، ولكن بها كثيراً من الحقائق التى هى فى طبيعة الإنسان، تمثل عواطفه وحواسه تمثيـلا تامًا. قال بوالو: "وبقدر مـاطابقة البلاغة للحـقائق يكون نصيبـها من الجمال. لأن العقل لا يقبل غير الحقائق. ولأجل أن يكون الكلام حقيقيًا لابد أن يكون موافقًا للطبيعة" . أى لما نعـهده من الأشياء التى نراها. فالموضوعات الشعرية لا تـكون جميلة إلا إذا مثلت الطبـيعة تمثيلا تـامًا. قال: "وكل هذا ينطبق على البـلاغة القـديمة، لأنهـا بلاغة إنسـانية - قـبل كل شىء - تمثل الإنسان وخواصه النفسية. وهذا هو السبب فى جمالها وعذوبتها، وقبولها فى كل زمن، وعند كل أمة.

فمذهب بوالو فى النقـد مذهب مبنى على تقليد طبيـعة الأشياء ورسم الحياة كـما هى. ولكنه لم يرد إلا جهة الجـمال والخير. قـال: "لأن البلاغة تقصد إلى إظهار الجمـال، فلابد من تجنب كل ما يخالف ذلك، أو يؤدى إلى عكس هذا. فهى من فنون الجمال، فـإذا خرجت عن ذلك لا تعد من الفنون فى شىء" . وكان يقصد أيضًـا من تقليد الطبيعة، الأشيـاء العامة التى توجد فى طبـيعة الإنســان، فإذا كـتب الكاتب عن "نيـرون" مثلا، فـإنه لا يكون غرضه شـخص "نيرون"، وإنما يقصد وصف خلق الظلم والاسـتبداد الكامن فى نفس الإنســان. فـلابد من محـو "الشـخصـيـات" ومميزات الأفـراد فى البـلاغة. بل يصف الكتـاب النفوس العـامة، والفـضائل العـامة، والطبـائع

العامـة، كمـا فى البلاغة الـقديمة، وكـما فـعل كرنى "Corneille" وراسين "Racine" وموليير "Moliere" فى كتاباتهم وقصصهم التـمثيلية التى بقيت إلى الآن، ولا يزال الناس يتذوقونها من أجل ذلك[1].

❊ ❊ ❊

(١) هؤلاء هم أشهر كتاب القرن الـسابع عشر الذين اشتهروا بقصصهم التمـثيلية فى المجتمع الأدبى الأوربى، وقد نقلت قصصهم إلى كثير من اللغات.

obeikandl.com